Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 35:2 (2000)

العالم الإسلامي ونظرية صدام الحضارات

الطيب زين العابدين

كتب أستاذ علم الحكومات المشهور صمويل هنتجتون في صيف عام ١٩٩٣م مقالة في مجلة (FOREIGN AFFAIRS) الأمريكية بعنوان THE CLASH OF CIVILIZATIONS? (صدام الحضارات) أثارت جدلا أكاديميا واسعا داخل وخارج الولايات المتحدة[١]، قال محررو المجلة: إن مقالة هنتجتون أثارت من الردود والنقاش أكثر من أي مقالة أخرى نشرت في المجلة منذ الأربعينات[٢]، والسبب في المناقشات الحامية التي أثارتها المقالة ليس فقط شهرة الرجل العلمية، أو جرأة أطروحته في مجال السياسة الدولية، ولكن أيضا لتأثير هنتجتون الفكري في تخطيط معالم السياسة الخارجية الأمريكية، فقد عمل خبيرا في شؤون السياسة الاستراتيجية لعدد من الحكومات الأمريكية،ويعمل حاليا مديرا لمعهد (جون أولن للدراسات الاستراتيجية) بجامعة هارفارد، كبرى

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الجامعات الأمريكية، والمقالة المذكورة جزء من برنامج بحثي قام به (معهد أولن) عن : متغيرات البيئة الأمنية والمصالح القومية الأمريكية، مما يعني أنها أطروحة مقدمة للحكومة الأمريكية لتأخذ بها في مجال السياسة الدولية. ومن المؤكد أن المقالة ستشكل مادة هامة ينظر فيها خبراء وواضعو السياسة الاستراتيجية الأمريكية، بل هناك من المؤشرات ما يدل على أن بعض المسؤولين في الكونجرس الأمريكي وفي المنظمات والحكومات الغربية بدأ يردد بعض أطروحات هنتجتون، وكأنها أصبحت سياسة معتمدة . وبما أن الحديث عن العالم الإسلامي يحتل مركزا محوريا في نظرية هنتجتون ، فينبغي علينا مناقشة تلك النظرية وما قد تؤدي إليه من سياسات عملية في المستقبل .

تتلخص نظرية هنتجتون في أن طبيعة الصراع الدولي بعد انتهاء الحرب الباردة بين المعسكر الرأسمالي والمعسكر الشيوعي ستكون صراعا بين الحضارات وليس بين الدول، وأن المعطيات الراهنة ترشح أن تكون المواجهة القادمة بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية متحالفة مع الحضارة الكونفوشيوسية الصينية.

كيف توصل هنتجتون إلى هذه النتيجة الخطيرة التي لا تبررها موازين القوى الحالية، ولاتسندها التحالفات القائمة بالفعل في العقد الأخير من القرن العشرين؟ يبني هنتجتون نظريته على الحيثيات التالية[٣] :

يقول : إن الشعور بالانتماء الحضاري سيزداد قوة في المستقبل، وأن العالم سيتشكل إلى حد كبير بالتفاعل بين ثماني حضارات هي : الحضارة الغربية، والكونفوشيوسية، واليابانية، والإسلامية، والهندوسية،

والسلافية ــ الأرثوذكسية، والأمريكية اللاتينية، والإفريقية، وذلك للأسباب الآتية:

١- إن الاختلاف بين الحضارات ليس حقيقيا فحسب ولكنه جوهري، فالحضارات تختلف عن بعضها بعضا في التاريخ، واللغة، والثقافة، والتقاليد، وأكثر من ذلك في الدين، وأتباع الحضارات المختلفة يختلفون في نظرهم إلى العلاقة بين الله والإنسان، وبين الفرد والجماعة، وبين المواطن والدولة، وبين الوالدين والأبناء، وبين الزوج والزوجة، كما تختلف نظراهم لأهمية الحقوق والواجبات، وللحرية والسلطة، وللمساواة والطبقية الاجتماعية. وهذه اختلافات عميقة وليدة قرون من الزمان، ولن تزول في زمن قريب، كما أنها أساسية بصورة تفوق اختلافات الأنظمة والأيديولوجيات السياسية.

٢- انكماش العالم باستمرار يزيد التفاعل بين أهل الحضارات المختلفة مما يقوي الشعور بالاختلاف بين الحضارات وبالعوامل المشتركة داخل الحضارات.

٣- إن عملية التحديث الاقتصادي والتغيير الاجتماعي في أنحاء العالم تفصل الناس عن انتماءاتهم المحلية التقليدية، كما تضعف كيان الدولة كمصدر للهوية، وفي كثير من أنحاء العالم زحف الدين ليملأ فراغ الهوية في شكل حركات سميت بالأصولية نجدها في المسيحية الغربية، واليهودية، والبوذية،والهندوسية، كما نجدها في الإسلام،وفي معظم الحالات يكون الناشطون في هذه الحركات من الشباب المتعلم

في الجامعات والفنيين من الطبقة الوسطى والمهنيين والتجار، أي أنهم ينتمون إلى القطاع الحديث في المجتمع.

٤- زادت ظاهرة العودة إلى الجذور عند الأمم غير الغربية في الشعور بالانتماء الحضاري فصرنا نسمع بكثرة اتجاهات الانكفاء على الآسيوية في اليابان، ونهاية تراث نهرو المتغرب في الهند وبروز الهندكة بديلا له، وفشل مفاهيم القومية والاشتراكية في الشرق الأوسط وإعادة الأسلمة، والجدل الدائر في روسيا بين التغريب والترويس، فبالرغم من أن الغرب في قمة قوته إلا أنه يواجه أمما غير غربية، لديها الرغبة والإرادة والإمكانات لتشكل العالم على غير الأنماط الغربية، كانت النخبة في تلك البلاد غربية التعليم والتوجه ولكنها أصبحت بصورة متزايدة تأصيلية ترفض النمط الغربي .

٥- السمات الثقافية المختلفة ليست سهلة الإخفاء ولذلك يصعب المساومة فيها أو معالجتها مثلما يحدث في حالة الاختلافات الاقتصادية والسياسية، فمن الممكن للشيوعي أن يصبح ديمقراطيا أو رأسماليا، ولكن لا يمكن له أن ينتقل من قوميته إلى قومية أخرى، وفي حالة الدين فإن التمايز بين الطوائف يكون أكثر حدة وعمقا من تمايز القوميات والأعراق.

٦- وأخيرا فإن التجمعات الاقتصادية والتجارة الإقليمية تزداد في أوروبا وشرق آسيا وأمريكا الشمالية وغيرها من المناطق، وتزداد أهمية في المستقبل، وستنجح الرابطة الاقتصادية الإقليمية إذا ما ضمتها حضارة مشتركة مما سيقوي الانتماء لتلك الحضارة وهذا ما أدى إلى

نجاح الاتحاد الأوروبي، ومنطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية ، في حين تواجه اليابان مشاكل في إنشاء رابطة اقتصادية مشابهة في شرق آسيا بسبب تفرد المجتمع الياباني بحضارة خاصة به، ولكن الصين - بسبب الثقافة المشتركة - استطاعت بسرعة أن تخلق علاقات اقتصادية مع هونج كونج، وتايوان، وسنغافورة.

كلما عرف الناس أنفسهم عن طريق هويتهم العرقية والدينية سيجدون أن علاقة "نحن" مقابل " هم " تقوم أساسا بينهم وبين أقوام من عرقيات وأديان مختلفة، وقد أدت نهاية الانتماء الأيديولوجي في دول شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي سابقا إلى بروز الهويات العرقية التقليدية، والعداوات القديمة مرة أخرى إلى السطح. والاختلاف في الثقافة والدين يؤدي إلى اختلاف في السياسة التي تمتد من حقوق الإنسان إلى الهجرة، إلى التجارة، إلى مشاكل البيئة.

والجوار الجغرافي بين الثقافات والقوميات يؤدي إلى نزاع حول الحدود كما نشهد ذلك من البوسنة إلى منداناو في الفلبين، وهذا ما يسميه هنتجتون بالخطوط المتوترة الفاصلة(FAULT LINES) بين الحضارات[٤]، ويقول : إن الصدام بين الحضارات يقع على مستويين، المستوى الصغير الذي يحدث بين الجماعات المتجاورة على الخطوط الفاصلة بين الحضارات وهي غالبا ما تكون عنيفة من أجل ضم أراض حدودية والسيطرة على المنطقة، والمستوى الكبير يقع بين عدة دول تنتمي إلى حضارات مختلفة تتنافس من أجل القوة العسكرية

والاقتصادية، فتتصارع للسيطرة على مؤسسات دولية وأطراف ثالثة داعية إلى ترويج قيمها السياسية والدينية[٥]. فالخطوط الفاصلة بين الحضارات ستقوم مقام الحدود السياسية والأيديولوجية التي كانت قائمة أثناء الحرب الباردة بين الكتلة الاشتراكية والكتلة الرأسمالية، والخطوط الثقافية الجديدة هي بين المسيحية الغربية من جانب وبين المسيحية الأرثوذكسية والإسلام من جانب آخر.

وترجع هذه الفواصل إلى عام ١٥٠٠ ميلادية حيث تبدأ من حدود روسيا مع فنلندا في أقصى الشمال وتنزل بخط متعرج على دول البلطيق ثم البلقان إلى جمهورية الجبل الأسود في أقصى الجنوب فالمجتمعات التي تقع شمال وغرب هذا الخط تعتنق البروتستانتية أو الكاثوليكية، ويشتركون في الخبرة التاريخية التي مرت بها أوروبا الغربية من إقطاع وإصلاح ديني وثورة فرنسية، وعصر النهضة، وثورة صناعية، وهم الآن يتطلعون إلى رابطة أوروبية موحدة، وإلى تعضيد أنظمتهم الديمقراطية. والمجتمعات التي تقع شرق وجنوب هذا الخط إما أرثوذكسية أو مسلمة ارتبطت تاريخيا بالدولة العثمانية أو بالإمبراطورية القيصرية، ولم تتأثر كثيرا بالأحداث الأوروبية، وهم أقل تقدما من أوروبا في التنمية الاقتصادية، وأقل قدرة على إنشاء أنظمة ديمقراطية مستقرة .

بناء على الحيثيات السابقة بَنَىَ هنتجتون نظريته على أن الصراعات الدولية الكبيرة القادمة ستكون صراعات بين الحضارات في أعقاب نهاية الحرب الباردة، ولا يعني بهذا أن الحروب بين الدول ولو كانت

لعبت دورا في تأجيج بعض الصراعات . وهناك من شكك في تقسيم هنتجتون للحضارات ، فلماذا تعزل أمريكا اللاتينية أو روسيا أو المنطقة السلافية ـــ الأرثوذكسية من الحضارة الغربية ؟ وهي أيضا تنتمي بسكانها وتراثها ولغاتها ودياناتها إلى أوربا[٧].

والسؤال الذي يهمنا في هذا المقام هو: لماذا يرشح هنتجتون العالم الإسلامي متحالفا مع الصين ليكون أول من يدخل في صدام مع الحضارة الغربية؟ الغريب أنه لا يجرؤ على التنبؤ بصدامات بين الحضارات الأخرى التي ذكرها، بل ولا يذكر احتمالا آخر أو يضع أسسا بعينها إذا ما تحققت وقع الصدام بين الحضارات. وكأنما القصد من مجمل نظريته الطموحة أن يبرهن على أن الصراع العالمي القادم سيكون بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، ويعزز من هذا الاستنتاج أن هنتجتون يتقدم في نهاية بحثه بوصفة ينصح فيها الدول الغربية أن تتخذ بعض السياسات العملية تحسبا لهذا الصراع القادم وكأنه قدر لا مفر منه . وقد تكون هذه الوصفة هي بيت القصيد من كل تلك النظرية .

يذكر هنتجتون في أسباب اختياره للعالم الإسلامي بأنه سيكون أول من يصادم الحضارة الغربية بعد انتهاء الحرب الباردة ما يلي:[٨]

إن الصراع عبر الخطوط الفاصلة بين الحضارة الغربية والإسلامية امتد لثلاثة عشر قرنا منذ أن جاء الإسلام واتجه العرب والمغاربة غربا وشمالا حتى وقفوا في حدود تور في وسط فرنسا عام ٧٣٢ ميلادية، واحتدمت الحروب الصليبية من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث

عشر بهدف إعادة الأراضي المقدسة إلى الديانة المسيحية مرة أخـــرى، وجاء العثمانيون من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر وامتـدت دولتهم إلى الشرق الأوسط والبلقان حتى حاصروا فيينا. وحين ضعفت قوة الدولة العثمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين زحفت كل مـن بريطانيا وفرنسا وإيطاليا لتستعمر معظم بلاد الشرق وشمال إفريقيـــا، وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية وانسحاب الغرب من مســتعمراته في العالم العربي ظهرت القومية العربية ثم الأصولية الإســـلامية تتحـدى الهيمنة الغربية، ووقعت عدة حروب بين العرب وإسرائيل التي أنشـأها الغرب، ودخلت فرنسا في حرب دامية ضد الجزائر، كما اشـــتركت فرنسا وبريطانيا في حرب ضد مصر في ١٩٥٦م ، كما دخلت قـوات أمريكية لبنان في عام ١٩٥٨م ثم عادت إليـه في مطلـع الثمانينـات وهاجمت أمريكا ليبيا ودخلت في مناوشات مع إيران وقادت تحالفـــا غربيا ضد العراق في مطلع التسعينات. وبعد نهاية تلك الحرب البـاردة اتجه تخطيط حلف شمال الأطلسي بصورة متزايدة إلى مواجهة الأخطـار المحتملة وحالة عدم الاستقرار في حدوده الجنوبية . وفي رأي هنتجتـون أن هذا التاريخ الطويل من الحروب بين الغرب والإسلام ليس منظـورا أن يتناقص بل من المحتمل أن يزداد عنفا، فحرب الخليج جعلت بعـض العرب يشعر بالافتخار أن صدّام حسين استطاع أن يهاجم إســرائيل و يواجه الغرب،وكثير منهم يشعر بالمهانة و الغضـب مـن الوجـود العسكري الغربي في الخليج الفارسي، ومن سيطرته العسكرية الغالبـة، ومن حالة ضعفهم الظاهرة في تشكيل مصيرهم. وكثير مـن الـدول

العربية قد وصلت إلى درجة من النمو الاقتصادي والاجتماعي تجعل من غير المناسب استمرار أنظمة الحكم الاستبدادي، ولكن إذا ما حدث انفتاح ديمقراطي فسيكون في مصلحة الحركات الإسلامية والقوى المعادية للغرب .

وتتعقد العلاقة بين الغرب و الإسلام بسبب الهجرة المتزايدة من شمال إفريقيا إلى أوروبا الغربية وما أدت إليه من ردود فعل عنصرية علنية وصلت حد الاعتداء والعنف ضد الأتراك والعرب في كل من إيطاليا و فرنسا و ألمانيا منذ بداية التسعينات. ويقول هنتجتون إن الصراع بين الإسلام والغرب ينظر إليه كلا الجانبين على أنه صراع بين الحضارتين الإسلامية والغربية،ويستشهد على ذلك بقول برنارد لويس: نحن نواجه حالة وحركة تفوق مستوى القضايا والسياسات التي تتبعها الحكومات، فهذه ليست أقل من صدام بين الحضارات – قد يكون وضعا لا عقلانيا ــ ولكنه بالتأكيد رد فعل تاريخي من منافس قديم ضد التراث اليهودي – المسيحي، وضد حاضرنا العلماني والتمدد العالمي لكليهما. (٩)

ويذكر هنتجتون الصراع الدائر في بعض البلاد الإفريقية بين المسلمين والمسيحيين في السودان ونيجيريا وتشاد والقرن الإفريقي باعتباره حالة لصدام الحضارات بين الخطوط الفاصلة، كما يستشهد بالصراع في البلقان بين الأرثوذكس والمسلمين وبين الأرمن والآذريين، وبين الروس والمسلمين في آسيا الوسطى ليدلل على امتداد الصراع بين الحضارتين. ويستنتج من كل ذلك أن للإسلام حدودا دموية مع

معظم جيرانه في إفريقيا وأوروبا وآسيا والشرق الأوسط، وفي جمل قليلة يذكر الكاتب أن للصين نزاعات حدودية مع معظم جيرانها، وأنها تتبع سياسة قمع قاسية ضد البوذيين في التبت وضد الأقلية التركية المسلمة، وأن هناك قضايا ساخنة بين الصين والولايات المتحدة حول حقوق الإنسان والتجارة الدولية وانتشار الأسلحة، وأن الاختلافات حول هذه القضايا لا يتوقع لها أن تخف حدتها، ويستشهد الكاتب بقول الزعيم الصيني الراحل (دينج اكسيوبنج) بأن حربا باردة جديدة ستندلع بين الصين وأمريكا. ويقول : إن الهيمنة الغربية الغالبة في السياسة والاقتصاد والسيطرة على المنظمات الدولية ستدفع كثيرا من الدول إلى أن تلحق بركب الدول الغربية ولكن بعض العقبات تقف أمام هذه المحاولة، وأكثر هذه العقبات تواجه المجتمعات المسلمة والكونفوشيوسية والهندوسية والبوذية، وتحاول هذه المجتمعات ــ التي لا تستطيع اللحاق بركب الدول الغربية لأسباب القوة والانتماء الثقافي ــ التنافس مع الغرب بتطوير اقتصادها وقوتها العسكرية والسياسية بمنهجها الخاص واعتمادا على إمكاناتها الذاتية وعلى التعاون مع الدول غير الغربية . وأكثر الصور وضوحا لهذا التعاون ستكون بين المجتمعات الإسلامية والكونفوشيوسية التي ستبرز لتتحدى المصالح والقيم والقوة الغربية.

سيدور الصراع ــ في تقدير هنتجتون ــ بين الغرب والدول الإسلامية الكونفوشيوسية أساسا حول التسلّح النووي والكيميائي والبيولوجي والصواريخ بعيدة المدى ووسائل إيصالها وتوجيهها،

والاستخبارات والقدرات الإلكترونية التي تحقق تلك الأهداف . ويقول إنه في حين أن الغرب يعمل على تخفيض ترسانته العسكرية النووية تعمل الصين في سرعة لزيادة إنفاقها العسكري وتحديث قواتها العسكرية، كما تتعاون في تسليح بعض دول العالم الإسلامي مثل العراق وباكستان وإيران وليبيا، وهذا يعني أن العلاقة العسكرية بين المسلمين والكونفوشيوس قد برزت إلى الوجود بتخطيط لتمتلك وتطور الأسلحة التي تمكنها من مواجهة القوى العسكرية الغربية! (١٠).

يكاد المرء لايصدق كيف انتهى أستاذ بارع في علم الحكومات مثل صمويل هنتجتون إلى مثل هذه النتائج المذهلة التي لا يبررها الواقع الذي نعيش فيه في نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين، فالفرق مهول في توازن القوى بين الغرب والعالم الإسلامي، وبين وحدة الغرب وتمزق العالم الإسلامي، ثم إن أكثر الدول العربية والإسلامية في حالة تحالف بدرجة من الدرجات مع الغرب وزعيمته الولايات المتحدة،وذلك بالرغم من استهانة الغرب بمصالح المسلمين وتجاهله برأي حلفائه من دول العالم الإسلامي، ويعجب المرء أن الأطروحات الكبيرة حول الاختلافات الحضارية والثقافية أفضت في نهاية المطاف إلى الحيلولة دون أن يمتلك العالم الإسلامي أسلحة متطورة نووية وكيماوية وغيرها، مثل تلك التي يمتلكها الغرب منذ عقود من الزمان ومازال يطورها بالتقنية الحديثة،وإن حاول تقليل أو تجميد كميتها العددية . وبما أن الصين هي أكبر منافس للاقتصاد الأمريكي في الحقبة القادمة وتبيع بعض

السلاح لدول إسلامية وغير إسلامية لأسباب اقتصادية بحتة كما تفعل كل الدول الغربية بصورة مضاعفة، فهل يعني ذلك أنها أصبحت شريكا للعالم الإسلامي في مواجهة الدول الغربية؟ . ولم يذكر هنتجتون أي تشابه بين الحضارة الصينية والحضارة الإسلامية يستدعي هذا التحالف بين الاثنتين ضد الحضارة الغربية، وإلا فهو صراع دول لأسباب اقتصادية وسياسية كما حدث في القرون القليلة الماضية .

قد نجد تفسيرا سهلا لتحليل هنتجتون في رغبته لحماية إسرائيل بحكم انتمائه للديانة اليهودية ، لذلك يكثر الحديث عن الدول العربية ونموها السكاني وزيادة قوتها العسكرية، ووجد مناصرا له في شخص برنارد لويس الذي عرف بانحيازه للدولة الصهيونية واستغلال معرفته الثرة بالتاريخ الإسلامي لتعميق العداء بين الإسلام والغرب كما يشير عنوان مقالته المذكورة سابقا "جذور الحقد الإسلامي"، ويصف يهودي آخر هو (هنري كيسنجر) كتاب هنتجتون بأنه من أهم الكتب التي ظهرت منذ نهاية الحرب الباردة[١١]. والتوصيات التي يتقدم بها هنتجتون إلى الولايات المتحدة والدول الأوربية من أجل الحفاظ على الحضارة الغربية تتلخص في الآتي:[١٢].

١- تأسيس تمازج أكثر بين الولايات المتحدة وأوربا سياسيا واقتصاديا وعسكريا، وتنسيق سياساتهم حتى لا تستغل دول من حضارات أخرى الخلافات بينهم .

٢- ضم الدول الغربية في وسط أوروبا مثل دول البلطيق وسلوفينيا، وكرواتيا للاتحاد الأوروبي ولحلف شمال الأطلسي.

من داخل حضارة واحدة قد انتهت بلا عودة ، ولكنـــها في تقديـــره ستكون حروبا صغيرة ومحدودة مقارنة بما سيحدث بـــين الحضـــارات المختلفة[٦]. وتلقت مجلة الشؤون الخارجية ردودا كثيرة علـــى مقالـــة هنتجتون نشرت منها في العدد التالي مباشـــرة (Vol.72, No. 4) تعقيبات كل من فؤاد عجمي أستاذ كرسي مجيد خدوري لدراســـات الشرق الأوسط في جامعة (جون هوبكنـــز)، وكيشـــور محبوبـــاني نائب سكرتير الشؤون الخارجية وعميـــد كليـــة الخدمـــة المدنيـــة في سنغافورة، وروبرت بارتلي محرر مجلة (وُولْ ستريت)، وليو بنيان مديـر مبادرة برنستون للصين ومن أبرز معارضي النظام الشيوعي في الصين ، وجين كيركباتريك أستاذة كرسي ليفي لعلم الحكومـــات في جامعـــة جورج تاون ومندوبة الولايات المتحدة في هيئة الأمم المتحدة ســـابقا، وآخرين من مشاهير الخبراء والأكاديميين. كما نشرت ردود أخـــرى في أنحاء كثيرة من العالم مما اضطر صمويل هنتجتون أن يرد في عدد آخـــر من مجلة "الشؤون الخارجية "(Vol.72,No.5) وأن يصدر كتابا في عام ١٩٩٦م في حوالي ٣٦٠ صفحة يوضح فيه نظريتـــه بصـــورة أكـــثر تفصيلا، ويستجيب إلى حد ما لبعض الانتقادات التي وجهت إليه .

من أهم تلك الانتقادات التي وجهت إلى نظرية صدام الحضـــارات مايلي:

لماذا تعود الحضارات التي ظلت مدفونة طيلة عقـــود الحـــرب الباردة فجأة إلى الحياة كاملة ومتماسكة؟ وتستدعى ولاءات أتباعـــها ضد أتباع الحضارات الأخرى؟ ليس هناك ما يدل على أن الحضارة أو

الثقافة هي المصدر الرئيسي للصراع في العالم الجديد، وإن أعنف صراعات القرن العشرين حدثت داخل الحضارات وليس بين الحضارات، فالحضارات مخلوقات (هلامية) فضفاضة تخترقها الأخاديد والسدود، ولكن هنتجتون يسوي خطوط العالم المتعرجة والمتداخلة ويرسم بقلم حاد، أين تنتهي حضارة وتبدأ أخرى! وبالرغم من أن هنتجتون يعترف بأن الدول ستظل هي صاحبة الدور الأكبر في تقرير شؤون العالم إلا أنه يلغي ذلك الدور من أجل صدام الحضارات، والدول لا تتصارع من أجل انتماءاتها الحضارية ولكنها تتصارع من أجل أسهم السوق ومن أجل التنافس في اقتصاد عالمي لا يعرف الرحمة حتى توفر لمواطنيها فرص العمل وتبعد عنهم شبح الفقر، وعلى كل فإن الحضارات لا تسيطر على الدول ولكن الدول هي التي تسيطر على الحضارات. ويقول البعض إن هنتجتون يقلل من تأثير التحديث والعلمانية على الدول غير الغربية، فالحديث الذي يعلو في بعض البلدان عن العودة إلى الجذور والتقاليد لا يعني الرجوع إلى عهد مضى، فإن دولة مثل إيران رغم ثورتها الدينية العنيفة إلا أنها حقيقة لم تستطع أن تقلع نفسها من ثقافة التحديث الغربية . فالقيم والمؤسسات الغربية قد انتشرت في أرجاء العالم ، فإننا نجد أن النظام الديمقراطي وثورة الاتصالات والمعلومات والعلاقات الاقتصادية المتبادلة وجاذبية الحرية الفردية أصبحت تشكل قوة لا يستهان بها في عالم اليوم . وتتلخص الانتقادات في الهجوم على محور نظرية هنتجتون الذي يقول إن الحضارات ستكون بديلة عن الدول في إشعال صراعات المستقبل وإن

٣- تشجيع تغريب دول أمريكا اللاتينية والدخول في تحالف بينها وبين الغرب .

٤- تحجيم تطور القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية لدى العالم الإسلامي والصين.

٥- وقف ابتعاد اليابان عن الغرب وتقاربها مع الصين .

٦- قبول روسيا باعتبارها مركزا للديانة الأرثوذكسية ودولة إقليمية رئيسية في المنطقة لها مصالح في تأمين حدودها الجنوبية، أي أن من حقها أن تهيمن على جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية .

٧- الحفاظ على التقدم التقني والتفوق العسكري الغربي على الحضارات الأخرى .

٨- استغلال الخلافات والنزاعات بين الدول الكونفوشيوسية والإسلامية .

٩- مساندة الجماعات المتعاطفة مع القيم والمصالح الغربية في الحضارات الأخرى، أي الأقليات داخل العالم الإسلامي .

١٠- والاعتراف بأن التدخل الغربي في شؤون الحضارات الأخرى هو من أكثر العوامل خطورة في عدم الاستقرار وإثارة النزاعات الكونية في عالم متعدّد الحضارات .

ويتضح من هذه التوصيات أنها ضعيفة الصلة بالشؤون الحضارية والثقافية ، ولصيقة بالأوضاع والسياسات الاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية ولا تختلف كثيرا عما كان سائدا بين الدول

أثناء الحرب الباردة وبعدها . وبتأثير الصورة النمطية للعربي والمسلم في وسائل الإعلام الغربية وبفضل كتابات خبراء وأكاديميين من أمثال برنارد لويس وصمويل هنتجتون وبسبب ردود الفعل للثورة الإيرانية وبعض أعمال الجماعات الإسلامية الجهادية فإن كثيرا من المسؤولين الغربيين أصبح يرى أن الإسلام هو الخطر القادم الذي يهدد الحضارة الغربية [١٣]. يقول جون أسبيستو "لقد وَجَدَتْ أطروحة هنتجتون مدًى لها في السياسة الخارجية الأمريكية ، وأن هذا المنحى وصل إلى قمته في المرحلة الأولى من إدارة الرئيس ريجان كرد فعل لموجات العنف ضد الولايات المتحدة، وبصورة خاصة حادثة تفجير مقر رجال البحرية الأمريكية في لبنان التي أفرزت اتجاه (نحن) و(هم) ، وأصبح العدو الجديد (الأصولية الإسلامية) إلى جانب(الإمبراطورية الشريرة) نموذجا وهدفا، لسياسة الحرب الباردة. فنائب الرئيس دانيال كويل، ساوى بين الأصولية الإسلامية والنازية والشيوعية وتهديداتها للولايات المتحدة؛هذا إلى جانب عدد كبير من الصحافيين والسياسيين المحليين الذين أكدوا هذا الموقف خلال إدارة الرئيس بوش"[١٤]. ربما تكون السياسة الأمريكية والأوروبية أقل غلظة الآن مما كانت عليه في مطلع التسعينيات ، وأكثر استجابة لمشاعر حلفائهم من المسلمين حين يتحدثون عن موقفهم من الإسلام والمسلمين، ولكن هذا لا يعني تغييرا رئيسيا في موقفهم من العالم الإسلامي باعتباره خطرا يتهدد الحضارة الغربية، وهناك من الشواهد والمواقف في البوسنة وكشمير وتيمور الشرقية والعراق وجنوب السودان والجزائر وفلسطين والشيشان ما

يدل على أن الغرب يقف في معظم الحالات ضد مصالح المسلمين وقضاياهم العادلة .

إن حالة العالم الإسلامي الراهنة لا تسمح له بمواجهة الغرب ولكن هذا لا يعني الركون إلى الوضع المزري الذي يتسم بالضعف والتبعية والتمزق وسيادة الأنظمة الاستبدادية، فإن حالة الضعف نفسها تغري بالتدخل في شئون العالم الإسلامي وتجاهل مصالحه والتجني على حقوقه . وإن جاز لنا أن نتقدم بوصفة إصلاح وبناء مقابلة لوصفة هنتجتون، فإنا نوصي جماعات المسلمين وأولياء أمورهم بالأخذ بما يأتي:

١- أن يكون شعار المرحلة القادمة هو إتاحة الحريات السياسية والمشاركة الشعبية في اختيار الحكومات ومحاسبتها على أعمالها ، حتى يكون لصوت الشعوب أثر في قرارات الدول، فالشعوب أكثر مقدرة على المقاومة والثبات من الأنظمة الفردية، وهي أقدر على الفاعلية والبناء حين يكون لها صوت مسموع .

٢- الوحدة الداخلية في كل بلد والتجمع بين الدول الإسلامية أمر أساسي لزيادة قوة المسلمين في عهد العولمة والتكتلات ، فمصدر الضعف الرئيسي في العالم الإسلامي هو التفكك والتشرذم والنزاعات بين الجماعات والطوائف والدول. وبما أن تحقيق الوحدة والتكتل عملية طويلة المدى فينبغي أن تبدأ من حالة الأوضاع الراهنة، ومن خلال الأنظمة والمؤسسات القائمة، وهي تستدعي مراعاة حقوق المواطنين والمساواة بينهم على اختلاف الملل والمذاهب والآراء، فالخطر

الماثل يتهدد المسلمين جميعا ولا يفرق كثيرا بين هـــذا وذاك ولكنـــه يضرب هؤلاء بأولئك .

٣- التعاون والتنسيق بين الدول الإسلامية في السياسات والقضايـــا والمصالح المشتركة حتى تكون أساسا متينا لتكتل ووحدة مستقبلية، وأن ننشئ من المؤسسات والنظم ما يعيننا على تحقيق ذلك التعـــاون ومـــا نعالج به ما يمكن أن يطرأ علينا من نزاعات وخلافات .

٤- البحث عن علاقات استراتيجية مـــع بعـــض الـــدول الهامـــة عسكريا وسياسيا واقتصاديا حتى تقوّي من صف العالم الإســـلامي إذا ما تعرض إلى اعتداءات أو تحرشات من قبل الآخرين. وينبغي إعطـــاء أولوية لحل النزاعات مع دول الجوار، فقد أصبـــح مـــن المـــألوف في العلاقات الدولية أن يبدأ التدخل الأجنبي بتحريض بعض دول الجـــوار على الدولة المعنية. كما أن الاهتمام بالأقليات الإسلامية والعـــــمل على توحيدها وتنظيمها – خاصة تلك التي تعيش في أوربا وأمريكـــا – سيكون له مردود كبير في نشر الإسلام والدفاع عن حقوق المســـلمين بحكم ما يتمتعون به من حق المواطنة ومن حريات سياسية.

٥- الاعتماد على النفس في بناء القدرات الذاتية سياسية واقتصاديـة وعسكرية، وأن نؤسس هذا البناء على قيم المجتمع وتقاليده ومعتقداته، فالكيانات الاجتماعية لا تستزرع من بيئة غريبـــة ، ولكنـــها تهجـــن وتستصلح حتى توائم بيئة المجتمع .

٦- إن الدعوة لإحياء الإسلام في شعب الحياة المعاصرة أمر بـــالغ الأهمية وبالغ الخطورة، ويحتاج إلى نظرة واعية إلى مقـــاصد الشـــريعة

وكلياتها قبل النظر إلى الفرعيات والشكليات. ومن سنة هذا الدين أنه جاء متدرجا رفقا بالناس، وحاثا على السير بمستوى ضعفاء النـــاس، فينبغي على دعاة الإحياء أن يحددوا أولويات العمل وفقا لمقاصد الديـن وأن يسعوا لذلك بخلوص النيات وبالعلم النافع والعمل الصالح وبالأخذ بالأسباب التي هي من أقدار الله في الكون والاجتماع البشري . وكلما كانت الخطوة محل اتفاق وتراض بين فئات المجتمع كانت أبعـد عـن الضلالة وأجلب للمنفعة وأقرب لروح الدين . وقد برهنـت تجـارب العقود القليلة الماضية أن استعمال العنف من قبل بعـض الجماعـات الإسلامية ذو نتائج وخيمة على حركة الصحوة الإسلامية داخل العـالم الإسلامي وعلى صورة الإسلام في العالم الخـارجي، وعلـى تلـك الجماعات نفسها التي تمارس العنف.

والله ولي التوفيق.

هوامش

١. Samuel P. Huntington, "The Clash of Civilizations?" in Foreign Affairs, Summar 1993 , Vol. 72 No.3, pp.22-49.

٢. S,P Huntington, The Clash of Civiliztions and the Remaking of World Ordor (Penguin Books, India, 1997), P. 13.

٣. Huntington, the article, F.A. ,pp, 25-29.

٤. Ibid.,p.29.

٥. p.29. ,Ibi

٦. Ibid, p.38.

٧. Foreign Affairs, Sept.-Oct. 1993, Vol. 72 No. 4, pp. 2-26.

٨. •pp, 31-34, •F.A ,Huntington, the article

٩. The Roots of Muslim Rage".The Atlantic ,B. Lewis" Monthly, Vol. 266, Sept. 1990, p. 60. Quoted in Huntington's article, F.A., p.32.

١٠. the article, F.A., p.47. ,Huntington

١١. the book, on the cover, ,Huntington

١٢. Ibid., pp. 311-312; Huntington, the article, p. 49.

١٣. See John Esposito, The Islamic Threat: Myth or Reality?, New York/ Oxford, Oxford University Press, 1992.

١٤. جون أسبوزيتو، "نظرة أخرى للسياسة الخارجية للولايات المتحدة بعد كوسوفا"، المجتمع، العدد١٣٨٧، ٨/٢/ ٢٠٠٠م، ص ٤٥.